حكايات مدائن: مدينة عمّان «الجزء ٥»

المشهد الحضري: الخلفية والإسقاط والحدث -٢- الإسقاط

د. وليد أحمد السيد

المحتوى الطبيعي ودلالات الجغرافيا والطبوغرافيا لا يمكن الحديث عن ساحة الجامع الحسيني، كإسقاط حضري لواجهة الجامع التي أفردنا لها الجزء الخامس من حديثنا عن عمّان، بمعزل عن المكون الطبيعي، والطبوغرافي والحضري للبيئة المحيطة في الوسط التاريخي للمدينة. فعمّان، أو عمون القديمة، هي مدينة التلال السبعة، طبيعتها جبلية، لكنها أصبحت علامة دالة عليها وعلى تكوينها العضوي الطبيعي. طبيعة الجبل لها تميز خاص، فيها الأعلى والمنحدر والأسفل، وهذه الطبيعة الجبلية فضلا عن أن لها خصائص طبيعية وبيئية، فإنها تؤثر في خصائص وطبائع سكانها مقارنة بسكان الساحل مثلا، أو سكان السهول أو أولئك بمحاذاة الشواطئ والأنهار والبحيرات . إلى حد أن ذلك قد ينعكس على خصائص وتشكيلة أجسامهم وبنيتها الفيزيائية. طبيعة الجبل وتحصيناته الدفاعية تعني الإنغلاق والتحوصل للداخل، تعني علاقة دفاع وأفضلية للأعلى على الأسفل، كما تتطلب فهما واعيا ودقيقا للإقليم المحيط قائما على البراغماتية التي تفرضها محددات وظروف الإقليم وعلاقاته الطبيعة والسياسية والعسكرية والتجارية بما حوله . فضلا عن حساب لوجستي وتكنولوجيا (عبر العصور والتاريخ) للإمدادات المائية ومصادرها وكيفية توفيرها في الحرب قبل السلم. وكثير من مدن العصور القديمة كانت دفاعية ونشأت بهذه الكيفية وعلى هذه الأسس. وفي الأغلب في المدن الجبلية، رغم وقوعها على امتداد مائي، كما في مدينة لشبونة مثلا والتي زرتها حديثا كضيف في حفل توزيع جوائز الآغاخان للدورة الثانية عشرة (وهي رحلة سنفرد لها حلقات في مساحات لاحقة في مذكرات الرحلات)، فإنها مثل مدينة لشبونة نشأت كنواة من أعلى تلة فيها حيث ما تزال القلعة تمثل قلبها التاريخي وتشرف على الوديان والخليج التاريخي المحيط بها . الذي استقبل فيه الملك فيليب الثاني لدى زيارته للبرتغال في القرن السادس عشر. ذات الملحوظة يمكن تأملها في مدينة جنيف مثلا، حيث نشأت كمدينة محصنة تستجيب للعوامل الطبوغرافية وتستفيد منها دفاعيا قبل أن تمتد بعدئذ طبيعيا خارج الأسوار وتتوسع على ضفاف بحيرة جنيف، والتي تعرف أيضا ببحيرة ليمان.

العلو فوق سفوح الجبال، وإقامة المنشآت والمدن على اختلافها، يرمز إلى المكانة العالية والمنزلة التي لا تدانيها منزلة. ولذلك ففي كل الثقافات الماضية، باستثناء المصرية القديمة (الأهرامات مثلا - ربما بسبب طبيعة تضاريس الإقليم المنبسطة عموما حيث لا جبال في السهول المأهولة المتاخمة لضفاف النيل مصر)، درجت العادة عند معظم الشعوب وفي مختلف الثقافات أن يتم إنشاء العمارة التعبدية الطقوسية فوق قمم الجبال (هضبة الأكروبولس، معابد الإنكا والمايا، المعابد في التبت والشرق الأقصى كأمثلة). وحتى في الحالات التي كانت الطبوغرافيا تحول دون ذلك كوجود السهول المنبسطة، فقد لجأ المعمار في تلك الحالات إلى تضخيم العمارة الدينية لتبدو ذاتها صرحية كالجبل، وكانت الأهرامات بضخامتها مثالا على ذلك، أو المصاطب المتدرجة التي تعلو للأعلى بما يحاكي الجبل وسموه. لكن من المثير ملاحظة أن، وكما طرح الصديق الدكتور ياسر الرجال في إحدى زياراتي لعمّان، الحضارة الإسلامية جاءت باستثناء لافت عن هذه الملاحظة العامة في تاريخ العمارة الإنسانية. فمكة المكرمة كانت «بواد غير ذي زرع» أسفل الجبال المحيطة. ومن السهل مناقشة هذه الفكرة ابتداء بأن ذلك مرده لطبيعة الطقوس التعبدية المرتبطة بمكة وهي الطواف بما يقتضي مساحة، فضلا عما في الطواف في أعالي الجبل والزحام من مشقة على شرائح المتعبدين وفيهم الضعيف والشيخ الهرم . وفي صعود الجبل ما فيه من مشقة. ولكن من الملاحظ أيضا أن الطقوس التعبدية المرتبطة بالحج ارتبطت مع ذلك بالعلو والسمو، وذلك في وقفة عرفة، وهو جبيل صغير أو تلة مرتفعة لا يصح الحج إلا بدونها حيث كان «الحج عرفة» كجزء من منظومة طبيعية ممتدة في مكة ومنى ومزدلفة كإقليم كامل متكامل ينتشر فيه المتعبدون لممارسة طقوس وأداء مراسيم الحج. وعموما يحتاج الموضوع لدراسة بحثية أعمق. في مقابل أهل الجبال، هناك أهل السهول. وطبيعة تضاريس أرضهم الجغرافية جعلتهم أكثر ضعفا وعرضة للعاديات وتداعيات التدافع البشري الطبيعي. فغلبت عليهم طبيعة الزراعة والركون إلى تطوير مظاهر الحضارة، فضلا عن البساطة. ورمزيا لكأن المتأمل يرى فيهم الرنو للأعلى وانتظار بركات السماء أو الإحتماء بالجبل والسلم دون انحياز أو تحيز. في المقابل فقد كان سكان الجبل، أو القلعة الحصينة أكثر دعة وراحة ورفاه اجتماعي وسلوكي، وهم أهل حرف نخبوية حضارية، وأهل شدة لما تتضمنه سكنى الجبل من ارتقاء وتعامل قاس وصارم مع البيئة المحيطة، صديقة كانت أم عدوة طامعة. أما الفئة الثالثة التي جاورت البحر، فقد كانت على الدوام شعوب مغوارة مغامرة تركب البحر، وتتفاعل مع تقلبات المحيط الطبيعي والديموغرافي والتجاري والسياسي. وفضلا عن ذلك فقد كانوا أهل حرف ارتبطت بالبحر، كالصيد وصناعة القوارب والتجارة فيما وراء البحار أو استقبال الحملات التجارية البحرية والتعامل مع التجار والزوار والمرتحلين ومختلف صنوف المسافرين القادمين من ثقافات ما وراء البحار. ولذا تجدهم أكثر دهاء وأوسع حيلة وذوي حسن تخلص من أقرانهم سكان السهول أو حتى سكان الجبال، بل تجد لديهم القدرة على التعلم ومجاراة لغة المسافرين وطبائعهم وثقافاتهم وسلوكياتهم. فهم أكثر مرونة ودهاء وتقلبا كطبيعة جارهم التاريخي . البحر أو المحيط المتقلب على الدوام. فالبحر بما يرمي من أهوال وما يبثه من صنوف المرتحلين من التجار والقراصنة والزوار، قد علم جيرانه أهل الساحل التعامل مع كافة صنوف البشر، ووسع مداركهم وآفاقهم وكان طول احتكاكهم بشعوب الثقافات الأخرى مدعاة لهم كي تصبح ثقافتهم وحضارتهم مزيجا لتلاقحات ثقافة وحضارة الأمم الأخرى . زائرة كانت أم غازية. ولهذا ترى أن المدن الساحلية، إن لم تكن طبيعتها جبلية تحميها من عاديات الغزو الخارجي، فإنها على الأغلب كانت مستعمرات ومحطات أولى للمستعمر الغازي. وبدلا من أن تكون خليجا محليا وطنيا أو إقليميا تصبح محطة قدوم خارجية وبخاصة حين اعتمد العالم القديم على البحر كوسيط للتنقل. إن الفروقات بين أهل الجبل والسهل وجيران البحار والأنهار والمحيطات لم تقتصر على القيمة الطبيعية في البيئة المحيطة وتداعياتها وتأثيرها على سلوكياتهم وطبائعهم أو انعكاسها على حياتهم ومعيشتهم وأمنهم وطبيعة مهنتهم، لكنها قد امتدت لتشمل فروقات في التكوين البنيوي لأبدانهم. وعموما قد يصعب التفريق بين سكان البيئات الثلاث وبخاصة في العصور القديمة التي كانت تتطلب مجهودا بدنيا كبيرا، فرضتها طبيعة الحياة القاسية وسنة الإنتخاب الطبيعي التي لا تجعل للضعيف مكانا في عالم الأمس، لدرجة أن أهل اسبارطة كانوا يقدمون لهذا الدنيا بعد اختبار قاس بترك أطفالهم في العراء لأيام عديدة وبين الجبال وظروف الحياة القاسية، فمن نجا بعدئذ كان أهلا لهذه الدنيا القاسية ومن افترسته الجوارح أو بهيم الحيوانات المفترسة كان رحيله أمرا محبذا بالنسبة لهم وعلامة دالة على عدم أهليته لصراع ومعترك الحياة لاحقا. ورغم هذا التقارب الجسدي بين أشداء سكان الجبل والسهل وجيران البحر، إلا أن ثمة فرق بسيط يمكن لحظه بين سكان الجبل وبين أهل الساحل في رسومات اليونان القدماء وطبيعتهم الفيزيائية، وبخاصة نساء الطبقات الأرستقراطية اللواتي تم تصويرهن من قبل كبار الرسامين، مما قد يكون تعبيرا عن طبيعة حياة الجبل وأهل الساحل. إذ يلاحظ المتأمل للتصاوير القديمة أن رقبة سكان الجبل أكثر غلظة من سكان الساحل، ولا يمكن أن تكون هذه الغلظة مجرد «غلطة تصويرية»، لأن من الممكن محاولة تقديم تفسير لذلك اعتمادا على طبيعة غذائهم. فأهل الساحل وبالضرورة اعتادوا على طعام البحر، وبالبحث والعلم فالأسماك تحتوي أملاحا عديدة مهمة، بعضها لا يوجد في بقية أنواع الغذاء الأخرى سوى الأسماك، منها ما له أثر إيجابي على الغدد التي تقع أسفل الفم في الرقبة والحنجرة، في الوقت الذي كما اسلفنا تشيع في حياة أهل الجبل الميل للدعة في مأمن من الخارج، وبخاصة بين الطبقات الحاكمة والبورجوازية بعيدا عن حياة السهل والبحر وطعامه كغذاء يومي مما قد يكون سببا في طبيعة التكوين الفيزيائي لأجسامهم بالطريقة التي تم تصويرها. وعموما فالمدن تكتسب طبيعتها وطابعها من مجموعة متعددة من العوامل الطبيعية والطبوغرافيا ودورها الإقليمي، كما أن لكل منها صبغة ونحلة ودورة حياة تعكسها على أهلها وتتأثر بسكانها وعظمة من يعيش فيها. ولذلك فالمدن الجبلية تكتسب طابعا مميزا وبانوراما رائعة تتراكب فيها المباني في تناغم مع حركية خطوط الطبوغرافيا فوق كل تلة من تلالها، وبهذا فالمشهد من أية تلة للأخرى إنما يكون متعة للنظر. وبالمقابل فالمدن التي تخترقها الأنهار والجداول والبحيرات تكتسب طابعا مهما ينعكس على طبيعة النشاطات التي يمكن لسكانها ممارستها ويمنح الماء للمدينة دورة حياة يومية متجددة بتجدد وسير حركة الماء فيها. وبعد هذه المقدمة النظرية، والمقاربة في التمييز بين طبائع المدن وطبيعتها التكوينية المتباينة، وانعكاسها على أهلها، يمكن بشيء من التدبر والحذر، النظر للمحتوى الطبيعي لمدينة عمّان الحالية . التي نشأت كعمون ذات التلال السبعة دون بحر أو نهر سوى سيل طبيعي جرى على استحياء بين قيعان جبالها وتلالها.

عمون الجبلية ذات التلال السبعة تلال عمّان السبعة، كل ذا صبغة وطابع وتاريخ، هي (ابتداء من الشمال وباتجاه عقارب الساعة): جبل القصور شمالا، يقابله جبل التاج شرقا، ثم جبل الأشرفية جنوبا، فجبل النظيف في الجنوب الغربي، وجبل عمّان غربا، ثم جبل اللويبدة إلى الشمال الغربي، ويجاوره باتجه الشمال جبل القلعة. فوق كل تلة مشهد حضري مختلف، وطبيعة عمرانية واجتماعية واقتصادية متباينة تطورت وتكرست على مر السنين منذ بداية القرن العشرين، وأصبح لكل منها دلالة ومعنى اجتماعي وبيئي واقتصادي ورمزي . لها مساحات وتفصيلات منفصلة. بين هذه التلال المتجاورة، وأسفلها، ينسل سيل عمّان من الشرق إلى الغرب بخفة وخفية وهدوء. وسيل عمون نشأت عليه وحوله أولى التجمعات التي نشأت منها المدينة لاحقا وكان الشراكسة أول من استوطن عمون القديمة. وسيل عمّان أو سقف السيل، بعد أن تم سقفه نظرا لجفاف مياهه في منتصف القرن العشرين. ويمتد شرقا إلى مدينة الزرقاء حيث يدعى هناك بسيل الزرقاء. وقد كان السيل قبل أن يجف ويتلاشى وتنضب مياهه أحد مصادر المياه في مدينة عمّان، لكن مع مرور الايام وازدياد عدد السكان بشكل كبير انطوت صفحة نهير عمّان الصغير. وقد كان سيل عمّان يشكل واحدا من الممرين الرئيسين المتقاطعين في عمّان أيام العصر الروماني. حيث كان يمر من امام سبيل الحوريات والمسرح الروماني في وسط المدينة. إذ كانت تلك المنطقة تتميز بنظام صرف صحي روماني متطور قديما. واليوم أصبح سقف السيل مركزا تجاريا في وسط البلد والمجمعات التجارية القديمة وسوق الحرامية بالإضافة إلى الاسواق التجارية القديمة المرتبطة. وبسقف السيل على طول امتداده في وسط المدينة لأكثر من أربعة كيلومترات نشأ وسط مدينة عمّان كإسقاط حضري للأبنية والأنشطة التي تفرعت وامتدت على طول تعرجه ابتداء من المحطة شرقا إلى رأس العين في الجنوب الغربي. وبدا السيل كشريط طولي متعرج يتلوى بين قيعان الجبال المحيطة. وفي منتصفه وبعيد المدرج الروماني كانت الساحة التي تقابل المسجد الحسيني الكبير. وهي ساحة تتنازعها حركة المرور الآلية من جزئها الشمالي لكنها تجثم كإسقاط حضري مهم لواجهة الجامع الرمزية التاريخية. ويبدو الفضاء الحضري المتفرع عن الساحة وسقف السيل كشبكة فراغية تنداح إليها الحركة من الأدراج المحيطة التي تنحدر كشقوق حضرية تصل من سقف السيل وعبر الجبال المحيطة وما ينبق عنها من شوارع رئيسية وفرعية. بكلامنا عن الخلفية (واجهة الجامع الحسيني) وعن الإسقاط (الساحة المقابلة للجامع كمنظومة فراغية حضرية متصلة تتلوى على قيعان الجبال المحيطة وفوق سقف السيل الذي كان واديا يجري بين تلال عمون السبعة) ينفسح المجال لمزيد من التأمل والكلام عن الحدث، وهو موضوعنا في الجزء القادم. فللحديث بقية.